نص الومضة بين التخصيص والتسطيح

د. جمال الجزيري

جامعة السويس، مصر

معظم الكلمات يمكنها أن توجد في سياقات لا حصر لها، ولذلك لا يمكن استعمالها مطلقة هكذا في النص دون تخصيص بكلمة أو كلمات أخرى تخلق لها سياقا وبيئة لفظية ولغوية تمنحها حياة خاصة وترسم صورة محددة في ذهن المتلقي. ويسري نفس الشيء على الشخصية في النص القصصي، فلابد أن تكون الشخصية ذات معالم وملامح أيا كانت حتى نستطيع كقراء أن نرسمها في أذهاننا ونتخيل الحدث حتى لو اختلف شكل التخيل من قارئ لآخر، وفي كل الأحوال لابد أن ينبع التخيل من النص بناء على دلائل نصية متحققة بالفعل فيه، وإلا سنخرج إلى إطار التعميم والتجريد والتسطيح الذين هم من أشد الآفات فتكا بالأدب وقضاءً عليه.

كما أن اللغة ليست تجميع لكلمات وراء بعضها. لابد أن تكون بين هذه الكلمات علاقات دلالية ومفهومية وتصوُّرية مستساغة. وحتى المجاز ذاته له منطقه الخاص ولا يمكن أن نقوم بإجبار كلمات على

obeikandl.com

التعايش مع بعضها البعض في حين أنه لا يوجد رابط منطقي أو وجداني أو فكري أو نفسي أو... بينها

الأدب بوجه عام ليست له علاقة بالمباشَرة القُحّة وما يتعلق بها من وعظ وإرشاد وتعليق وتهذيب وإصلاح، فكل هذه الأغراض لها منابرها ومجالاتها التعبيرية الأخرى بعيدا عن الأدب. ولذلك لا مجال لها في الومضة، فالومضة تقدم لنا لقطة من حدث مجسد من خلال الفعل أمام أعيننا إذا كانت بضمير الغائب ولا يحق للراوي هنا أن يعلق أو يعظ أو يفترض أنه مصلح اجتماعي وعليه تهذيب هذه الفئة الضالة أو هذا المجتمع الفاسد!

فالراوي هنا مجرد راصد للحدث مثله مثل الكاميرا بالضبط. والكاميرا لا تعلق، ويمكن للكاتب التعليق بطريقة غير مباشرة من خلال التقاط زاوية دالة للحدث أو من خلال عملية المونتاج أو المَنْتَجَة التي يجريها على الحدث. وفي هذا النوع من الومضات، يمكن للراوي أن يتتبع منظور الشخصية التي تقوم بالحدث/الفعل، وهنا يحق لهذه الشخصية أن ترى الحدث من وجهة نظرها حتى لو كانت وجهة النظر هذه تتمثل في تعليقها على الحدث. وهنا لابد أن نلفت الانتباه إلى أن هذا التعليق ليس منفصلا عن الحدث، وإنما ينقل لنا وجهة نظر الشخصية في الموقف الذي توجد فيها ويمت لها بصلة وثيقة.

opeikandi.com

أما في الومضات المروية بضمير المتكلم، فيمكن للراوي أن يضيف إلى الحدث تفسيره له أو انطباعه عنه أو دلالته بالنسبة له. وهنا لابد أن يكون هذا الحدث فريدا بحيث يأتي تفسير الراوي لما يحدث بمثابة نظرة جديدة لنا نرى من خلالها تجربة قد تكون عادية من زاوية جديدة.

وفي كل الأحوال، لابد أن يكون الحدث مميزا وله دلالته الإنسانية البارزة وفي الوقت ذاته يكون منفتحا على كافة مجالات الحياة والتجارب الإنسانية، ومن الأفضل أن تكون الومضة عميقة بحيث يمكن تأويلها أكثر من تأويل ويستطيع القراء المختلفون أن يقرؤونها من زوايا مختلفة. فكثيرا ما يقوم القارئ بتأويل الومضة تأويلا مختلفا حتى عما كان يقصده الكاتب لأنه وجد في نص الومضة ما يساعده على هذا التأويل. كتبتُ مثلا بعض الومضات عن "الإطفاءات" – وكنت أقصد بها نقيضَ الومضات الأصيلة – ووجدت بعض القراء يربطونها بانقطاع الكهرباء في العديد من الدول العربية في وقتنا الحالي.

الأدب بوجه عام رؤية خاصة ومميزة للحياة. وفن السرد خصوصا يقوم على تجسيد مواقف حياتية أو ما وراء حياتية متميزة والفكرة تأتي لاحقا بحيث يستشفها القارئ من السياق وبنية النص. ولو

opeikanai.com

كان النص جيدا ربما تكون هناك عدة أفكار تتشابك ببعضها البعض وتسمح بقراءة النص من أكثر من زاوية.

أما من يصر على الفكرة أولا ويحددها ثم يقول سأكتب ومضة عن كذا، فأظن أنه لا يفهم جوهر الأدب ولا يكتب أدبا. من ينظر إلى الأدب على أنه حكمة الأجداد ودروس مفيدة أظن أن لديه مفهوم خاطئ عن الأدب، ونشرنا في عدد أكتوبر من مجلة سنا الومضة القصصية مقالة كاملة عن مفهوم الأدب وتطوره وكيف أنه كان يعني في اللغة العربية في البداية التأديب والتهذيب ثم تحول المفهوم مع مطلع العصر الحديث ليدل على الأنواع الأدبية الحديثة، أي صار مفهوما نوعيا ليست له علاقة بالحكمة والتهذيب والإصلاح، وإن كانت الكلمة بمعناها العام ما زالت تدل على ذلك.

كيف يمكن لأديب أن يجهل ماهية الأدب؟ الأدب تجسيد ونظرة متميزة للكون والحياة. التجريد والوعظ والإرشاد والنظرة الأخلاقية السطحية للحياة لا علاقة لهم بالأدب. والنص الذي يقوم على مجرد الفكرة ليس أدبا، فهو مجرد تعبير عن فكرة بشكل مباشر. ويرتبط بالتعبير المباشر عن الفكرة استعمال شخصيات نمطية أو مجردة مثل الفضيلة والرزيلة والشيطان وإبليس والأمانة وما إلى ذلك: هذه شخصيات لا تصلح أن تكون شخصيات في نص أدبي جيد، فمجالها

في الأدب التعليمي والمسرح التوعوي مثلا. وعندما توجد مثل هذه الشخصيات في السرد أو شخصيات نمطية أخرى ليست لها معالم فردية، تصير مجرد أداة لتوصيل الفكرة في الأساس، وليست شخصيات أدبية سردية من لحم ودم.

الأسماء المجردة مثل الظلم والخير والشر والحق والفساد والحب والكراهية والعدل لا يمكنها أن تكون شخصيات في قصة أو ومضة وإلا رجعنا إلى عصر ما قبل الأدب أساسا. الأدب تجسيد ولابد للشخصية في القصة أن تكون لها ملامح محددة وتنتمي لفصيل من فصائل المخلوقات من بشر وحيوان ونبات وطيور. الومضة ليست حكمة وليست مقولة وليست مثلا وليست فكرة. على الكاتب أن يجسد موقفا محددا بشريا أو غير بشري ويدعنا نستنبط ما يريد أن يعبر عنه من خلال هذا الموقف والسياق الذي يخلقه، لا أن يقول لنا الكاتب الفكرة. أي نصوص تجريدية تعميمية ليس لها مكان في الومضة القصصية.

والتسطيح أيضا يشمل قيام الومضة على التضاد والتناقض والمفارقة دون بنية سردية تستتبع مثل هذه التقنيات، فهذه العناصر لا يمكنها أن تكون مجرد قشرة خارجية تكسونا، بل هم تعبير عن بعض جوانب تجربتنا كبشر نعيش حياة متكاملة بكل ما فيها وفينا وما عليها

وعلينا وما لها ولنا، ولذلك لابد أن تلتحم هذه العناصر بتجربتنا القصصية الحقيقية أو المتخيَّلة ونلتحم بهم في قصة ومضة صادقة أيا كان ما تعبر عنه. نحن بشر وومضاتنا إنسانية خالصة. لسنا متطهرين ولا ننظر للعالم من الخارج. الومضة تعني التوغل في روح التجربة السردية ومحاولة التقاط القبس الذي يكشفه لنا هذا التوغل، ولذلك يكون التوقف عند القشور اللغوية والاهتمام بالمظهر البراق أو المفتعل على حساب الجوهر قتلا متعمدا للومضة والوميض والسرد.

ومن مظاهر التسطيح أيضا أن يفترض الكاتبُ الغباءَ في القارئ، ويقوم بتفسير كل شيء له أو ينصّب نفسه وصيا عليه وعلى فهمه. فللنص حياته الخاصة بعيدا عن مؤلفه وللقارئ أيضا حياته الخاصة بعيدا عن المؤلف ورؤيته. ومن هنا لابد أن يكون النص صالحا للحياة بعيدا عن كاتبه ولا يضطر هذا الكاتب لأن يكون حاضرا مع كل قارئ ليشرح له النص. ويستوجب ذلك أن يتناول النص تجربة إنسانية قد تتقاطع مع تجارب آلاف البشر بحيث إذا قرأه قارئ قد يجد فيه صدى لنفسه، وهذه سمة من سمات الأدب الجيد الذي يتجاوز الحدود الجغرافية والزمانية ويستطيع أن يحيا في وجدان القراء مختلفي الجنسية والهوية والديانة وما إلى ذلك. ولذلك لابد أن يخلو النص من العنصرية ومن الإشارات العقائدية المباشرة محل الخلاف، وكل ذلك

openkanaje.com

يمكننا أن نتجنبه من خلال عدم التعبير المباشر على الفكرة ومن خلال تجسيد الفكرة في موقف إنساني قد يتعاطف معه قارئ لا يؤمن بالفكرة أصلا.

obeikandl.com